إعجاز التصريف في البيان القرآني

إعـــداد

د. زينب بنت عبداللطيف بن كامل كردي

د. زينب بنت عبداللطيف بن كامل كردي

- الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي -كلية اللغة العربية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- حصلت على درجة الماجستير من كلية اللغة العربية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحتها : (التصوير البياني في آيات الأمن والخوف).
- حصلت على درجة الدكتوراه من كلية اللغة العربية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحتها : (الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم).

ملخص البحث

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده، أما بعد:

فيسعى هذا البحث (إعجاز التصريف في البيان القرآني) إلى تسليط الضوء على مصطلح التصريف، وفتح الآفاق المتعلقة به من أفانين البلاغة، مع إيراد شواهد متنوِّعة تعين على توصيف أسلوبه، فالتصريف فنٌّ بيانيٌّ دقيق المسلك بعيد الغَور، وسرٌّ عظيم من أسرار الإعجاز في مَثَل البيان الأسمى في معانيه وعرض موضوعاته؛ إذ يرد فيه المعنى الواحد بألفاظ متغايرة وطرق متباينة، مختلفة المعاني والمباني، تتنوع فيها وجوه الخطاب، وتتفنن أساليبه ومقاماته،

وجاء تقسيم البحث إلى مقدمة وثلاثة مباحث، تقفوها خاتمة تلخص أبرز النتائج، وثبت بالمصادر والمراجع.

فتناول المبحث الأول: مصطلح التصريف ومفهومه، في اللغة والاصطلاح، معرجًا على المصطلحات التي تقاربه، مع مناقشتها وبيان سر تفوق هذا المصطلح عليها.

وعن أنواع التصريف في القرآن كان المبحث الثاني، فقد تفرع إلى نوعين رئيسين يشملان المضمون والشكل، تتفرع منهما أنواع أخر تجلي الإعجاز القرآني، فتتصرف المعاني المختلفة مراعية المقامات التي هي أساس البلاغة، في جوانب متعددة من الشكل، ومنها تصريف الألفاظ المترادفة في أصول المعاني، وكذا التصريف في زمن الأفعال، وفي التراكيب، وفي الصور،

والتصريف في أساليب الحجاج وفي القصص وفي الأمثال.

وكانت القيم البلاغية للتصريف هي مصب اهتمام المبحث الثالث: ولا غرو أن يجمع القرآن بتصريفه بين جانبي الإقناع والإمتاع والتأثير في النفس الإنسانية تحقيقًا للغرض الأسمى والمطلب الأرفع للبيان القرآني وهو الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة باستخدام شتى الطرق لتهيئة المتلقِّي لاستقبال الدعوة برضًى، فيسير وراء المعنى في تصريفه، وتجدُّده بسبله البلاغية المتنوِّعة، ليجد القرآن ينأى عن التعبير بالأسلوب الواحد المباشر الذي لا يتنوَّع، بل يلجأ إلى أفانين شتَّى من البلاغة تتَّسق في رصد معانٍ ومواقف يبدو بين طيَّاتها ما يخلب ويروق، ويُظهِر ثراء المعاني وبراعة الصياغة والأداء، لا يملك معها المتلقي إلا إعلان الإيمان بالله والامتثال لما جاء به نبيه ﷺ.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

Abstract

Praise be to Allah and peace and blessings be upon Prophet Mohammed (pbuh).

This research work sheds light on the concept of (taSrif) realization in eloquence, and opens the door for conducting studies of all related rhetorical arts, while providing various examples to determine its style. realization in eloquence is a very profound and precise technique in rhetoric. It is one of the great secrets of the inimitability of the Qur'anic eloquence utilized to display its meaning and topics, and to convey the sense of a polysemous word expressed by different rhetorical methods that show richness of meanings and structures, and diversities of speech.

The study comprises an introduction and three sections, followed by a conclusion that summarizes the main findings, and finally, a list of references.

The first section defines the concept of realization linguistically and in Qur'anic terminology. It compares it with other similar technical terms, and then it illustrates the secret behind the superiority of the term “realization of eloquence” above all other terms.

The second section deals with types of realization of eloquence in the Qur'an. It branches out into two main types; content and form, which, in turn, branches out to other types that display the Qur'anic inimitability when different meanings are realized - taking into account the different contexts, which are the bases of rhetoric - in multiple aspects of the form, such as realization of synonymous words in core meanings, verb tenses realization, syntaxes, verbal imagery, and realization in styles of argumentation, stories and proverbs.

The main concern of the third section is the rhetorical values of realization of eloquence. No wonder that the Qur'an combines persuasion, intrigue, and realization in order to affect the soul, and achieve the supreme purpose of the Qur'anic eloquence; i.e. calling people to the way of Allah with wisdom and good instruction, and utilizing a variety of ways to prepare the recipient to gladly accept the call. The researcher then goes further than the meaning of realization, and investigates meanings by diverse rhetorical methods to find that the Qur'an does not confine itself to one direct style that does not vary, but instead it utilizes different rhetorical methods harmonized by meanings and attitudes that show richness of meanings and innovation of performance, prompting the recipient to declare his faith in Allah Almighty, and to comply with what His Prophet's (pbuh) commands.

All praise is due to Allah. By His grace righteous deeds are accomplished.

المقدمة

الحمد لله منزِّل الكتاب العظيم، المصرّفِ بيانَه في نظم معجز قويم، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم عليم، والصلاة والسلام على أبلغ العالمين، إمام المرسلين، نبيِّنا محمد، وعلى آله وصحابته المهتدين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد، فإن أفضل ما تعمر به الأوقات التدبّر في بلاغة التنزيل، وبدائع التأويل، في كتاب أحكم بيانه، وصرفت آياته؛ وتباينت أساليبه وسماته، «فسبحان من سلكه ينابيع في القلوب، وصرفه بأبدع معنى وأغرب أسلوب، لا يستقصي معانيه فهم الخلق، ولا يحيط بوصفه على الإطلاق ذو اللسان الطلق»[1].

ويسعى هذا البحث (إعجاز التصريف في البيان القرآني) إلى تسليط الضوء على مصطلح التصريف القرآني، وفتح الآفاق المتعلقة به من أفانين البلاغة، مع إيراد شواهد متنوِّعة تعين على توصيف أسلوبه، فالتصريف فنٌّ بيانيٌّ دقيق المسلك بعيد الغَور، وسرٌّ عظيم من أسرار إعجاز مَثَل البيان الأسمى في معانيه وعرض موضوعاته، فيرد فيه المعنى الواحد بألفاظ متغايرة وطرق متباينة، مختلفة المعاني والمباني، تتنوع فيها وجوه الخطاب، وتتفنن أساليبه ومقاماته. قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾** ﴾[الإسراء: ٨٩] . فمع تفرُّق

(١) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٤ .

المعنى الواحد في القرآن، وتبايُن أوقات نزوله، إذ به يمثِّل وحدة متكاملة تُعرض وَفق نظام بديع، تنساب ألفاظه ملائمة لسياقها وموضوعها والعبرة التي تنطوي عليها في انسجام عجيب، وسبك متين.

ومن أسباب اختيار الموضوع إبراز الجانب البلاغيّ للتصريف في القول، واستلهام ما تميز به أسلوب التصريف القرآني من بلاغة فذة في مخاطباته، فقد وجدت دراسات متفرِّقة تدور حول هذا الموضوع، منها ما هو أقرب إلى التفسير الموضوعي في تقسيم فصوله[1]، ومنها ما انصبّ على حِكَم التصريف، وموقف الناس منه، وعرض لما ذكره العلماء حوله[2]، مما دفعني إلى إكمال هذه الجهود حرصًا على توصيف أسلوبه، وعرض ما يجلِّي ملامحه ويبيِّن المباحث البلاغية التي تندرج تحت موضوعه، طلبًا لما في التدبر والنظر في بلاغة القرآن من جوانب الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

ويسعى هذا البحث إلى تحقيق الأمور الآتية:

١. خدمة البلاغة القرآنية، وتعميق مستوى الفهم في جوانبها.
٢. تأصيل مصطلح التصريف، ومناقشة تفوقه على ما يقاربه من مصطلحات بشرية، لا تصل إلى آفاقه الرحبة في مثَل البلاغة الأسمى، عز قائله!
٣. تتبع ألوان التصريف في البيان القرآني، وتصنيف آراء العلماء حوله.

---

(١) منها بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم، د.عبد الله النقراط..

(٢) منها بحث تصريف المعاني في القرآن الكريم، د.عبدالعزيز العمار.

٤. استشراف الظواهر البيانية الأسلوبية للتصريف القرآني، وما تنطوي عليه من قيم معجزة.

وتقتضي طبيعة البحث أن ينتظم في مقدمة وثلاثة مباحث، تقفوها خاتمة تلخص أبرز النتائج والتوصيات، وثبت بالمصادر والمراجع.

المبحث الأول: مصطلح التصريف ومفهومه.

المبحث الثاني: أنواع التصريف في القرآن.

المبحث الثالث: القيمة البلاغية للتصريف في القرآن الكريم.

وسارت الدراسة على المنهج الوصفي الاستنباطيّ لتوصيف هذه الظاهرة القرآنية واستكناه أسرارها البلاغية. واللهَ أسأل أن يلهمني الصواب، ويهديني سواء السبيل.

وأتقدم بالشكر الجزيل إلى هيئة تحرير مجلة تبيان للدراسات القرآنية، وللمحكِّمين الفاضلين على ما بذلا من جهد ووقت في القراءة والمراجعة، فجزى الله الجميع عني خير الجزاء، ووفقنا جميعًا لخدمة كتابه، وتدبره على الوجه المرضي. والحمد لله أولاً وآخر، والصلاة والسلام على خير خلقه نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول
مصطلح التصريف ومفهومه

التصريف لغة:

أصل الصرْف يدلّ على رَجْع الشيء. من ذلك صَرفْتُ القومَ صَرْفًا وانصرفوا، إذا رَجَعْتَهم فرَجَعوا، والتَّصرِيفُ: اشتقاق بعض الكلام من بعض، وتزيينه والزيادة فيه، وصَرْف الحديث: الزيادة فيه مع التحسين، وسمِّي بذلك؛ لأنَّه إذا زُيِّن صَرَف الأسماع إليه[(1)]. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩]. وقال عزّ من قائل: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾[الأعراف: ٥٨]، وفسّر أبو حيَّان (٧٤٥هـ) التصريف في الآية بالترديد والتنويع[(2)].

التصريف اصطلاحًا:

ورد مصطلح التصريف عند بعض العلماء، وفيما يأتي عرض لما ذكروه وصولاً منه إلى تعريف مختار أو مستنبط:

١. قال الرمانيّ (٣٧٦هـ): «التصريف تصريف المعنى في المعاني المختلفة كتصريفه في الدلالات المختلفة، وهو عقدها على جهة التعاقب ...

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، والمفردات في غريب القرآن: صرف.

(٢) ينظر: تفسير البحر المحيط: ٤/ ٣١٩.

كتصريف الملك في معاني الصفات فصرّف في معنى مالك وملك وذي الملكوت، والمليك وفي معنى التمليك، والتمالك والإملاك، والتملك والمملوك»[1].

٢. سماه ابن أبي الإصبع (٦٥٤هـ) التصرُّف وعرّفه بقوله: «هو أن يأتي الشاعر إلى معنًى فيبرزه في عدّة صور، تارة بلفظ الاستعارة، وطورًا بلفظ الإيجاز، وآونة بلفظ الإرداف، وحينًا بلفظ الحقيقة »[2].

٣. ذكر السلجماسيّ (٧٠٤هـ) بأنّ التصريف يدلّ في الوضع على التغيير، وهو: «إعادة اللفظ الواحد بنوع المادة فقط في القولين ببناءين مختلفَي الصورة مرتين فصاعدًا، وبالجملة فهو لفظ يشتقّ من لفظ»[3].

٤. عرّف د.عبد الله النقراط التصريف بقوله: « تصريف الآيات: هو تنويعها في المعنى الواحد أو الموضوع الواحد، وعرضها بصور شتّى وأساليب مختلفة، وذلك لتقرير أصول العقيدة، وعرض أدلّتها، وبيان الحجج والدلائل الدالّة على الوحدانيّة، وعظيم القدرة الإلهيّة، وإثبات البعث والجزاء والنبوّة والرسالة، وإيراد القصص والأمثال، والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والشرائع والأحكام، والأوامر والنواهي، وما إلى ذلك مما صرف القرآن بيانه»[4].

---

(١) النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل) : ١٠١ .

(٢) تحرير التحبير: ٥٨٢ .

(٣) المنزع البديع : ٤٩٩- ٥٠٠ .

(٤) تصريف القول في القرآن الكريم : ١/ ٢٧.

٥. ممن استعمل هذا المصطلح كذلك محمد أبو زهرة، وعقد له مبحثًا خاصًّا ذكر فيه تميُّز الإعجاز القرآنيِّ بالتصريف في كلِّ أبواب القول ما بين تهديد وإنذار وتبشير وإثارة للتأمُّل، ودعوة للتفكُّر في آيات الله تعالى الكونيَّة والقرآنيَّة، والتفكُّر في النفس والحسّ. وجعل التصريف في القرآن على ضربين: أحدهما في المعاني، والآخر في الألفاظ والأساليب.

فأمَّا تصريف المعاني، فبأن يكون المؤدَّى في جملته واحد، لكنَّه يختلف بما يلائم سياقه. واستدلَّ عليه بالقَصص القرآنيّ؛ فقد تختلف ألفاظه أو تتقارَب أو تتَّحد في بعض العبارات[1].

مناقشة التعريفات:

يعدّ الرماني من أوائل من استعملوا مصطلح التصريف، وقد جعله من أبواب بلاغة القرآن، لكنّ تعريفه فيه تكرار، ولم يصل منه إلى تحرير المصطلح؛ إذ كان منصرفًا إلى إثبات إعجاز القرآن من هذا الجانب، وتمثيله اقتصر على جانب من جوانبه هو الكلمات المشتقّة من أصل واحد، وكذا فعل السلجماسي في تعريفه بل ذكر أنه قد يتداخل عند بعض الأدباء مع التجنيس، لكنه في الحقيقة مختلف عنه.

أمّا ابن أبي الإصبع فعلّق التصريف بفنون البيان حتى كاد يقصره عليها -كما سبق في تعريفه- ثم قال بعد سرد جملة من الشواهد على التصريف في الصور: «ولا شبهة في أن هذا إنما يأتي من قوَّة الشاعر وقدرته،

(١) ينظر: المعجزة الكبرى: ١٦٦- ١٦٨

ولذلك أتت قصص القرآن الكريم في صور شتّى من البلاغة ما بين الإيجاز والإطناب، واختلاف معاني الألفاظ، وشهرة ذلك تغني عن شرحه»[(١)]، كل هذا يدلّ على تحولات أسلوبية في السياق تتجاوز الألفاظ.

وفصّل كلٌّ من د.عبدالله النقراط ومحمد أبو زهرة جوانب مفهوم التصريف، ففي تعريف الأوّل ما يكشف عن اتفاق أصول المعاني واختلافها من سياق لآخر بتراكيب متنوعة وفنون متباينة، تتغاير تبعًا للمقامات وقرائن الأحوال ولعله أوضح التعريفات وأشملها؛ لذا بنيت عليه تعريفًا مستنبطًا يقرن بين التنوع والتباين في المعاني وبين التناسب والمقام وهما لبّ البلاغة؛ ليكون التعريف جامعًا مانعًا.

في حين تجاوز حديث محمد أبو زهرة التعريف إلى توضيح جانبيه: المعاني والأساليب، وإلى هذا التقسيم أميل؛ لذا صنّفت الأقسام مندرجة تحت هذين الجانبين.

التعريف المستنبط للتصريف:

يمكن في ضوء ما ذُكر من تعريفات، وما رجعت إليه من تفسير للآيات التي ذكر فيها لفظ التصريف أن أحرِّر المقصود من هذا المصطلح بأنه:

تنوُّع عرض المعنى الواحد بطرائق تعبيريَّة شتَّى لكلٍّ منها أسلوبه وطبيعته وعناصره التي تتواءم مع سياقه ومقامه وقرائن أحواله.

---

(١) تحرير التحبير: ٥٨٢ .

مصطلحات تقارب التصريف:

بتأمل ما ذكر حول معنى التصريف؛ تبرز مصطلحات تقاربه في جوانب جزئية، وسأعرض كل منها مبينة بعض من أورده؛ إذ لا سبيل لتتبع الأقوال فالمقام لا يسمح، ولن تضيف البحث كبير فائدة:

١.التَّكرار: قسم ابن رشيق (٤٥٦هـ) التكرار ثلاثة أقسام: تكرار اللفظ دون المعنى، وتكرار المعنى دون اللفظ، وتكرار اللفظ والمعنى، وحكم على الأخير بأنه الخذلان بعينه[١]، وذكر الكرمانيّ (٥٠٥هـ) التكرار في القرآن مبيِّنًا مقاصده وحكمة اختصاص آية ما بسورة معينة، مما يبرز الارتباط الوثيق بين التكرار وعلم التناسب[٢].

٢. التَّكرير: ذكر ابن الأثير (٦٣٧هـ) أنه «ينقسم قسمين: أحدهما يوجد في اللفظ والمعنى، والآخر يوجد في المعنى دون اللفظ» [٣]. واستشهد عليه بآيات تدخل في باب المتشابه اللفظي والتصريف، ومن المصنفات الحديثة في مصطلح التكرير: التقرير في التكرير، وجل حديثه عن المتشابه في القصص القرآني[٤].

٣. التَّرداد: ورد هذا المصطلح عند بعض المفسِّرين والبلاغيِّين واللغويِّين. قال الجاحظ (ت٢٥٥هـ) ناقلاً قولاً لسفيان بن عيينة عن

(١) ينظر : العمدة في صناعة الشعر ونقده : ٢/ ٦٩٨ .
(٢) ينظر : البرهان في توجيه متشابه القرآن : ٦٣-٦٤ .
(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ٢/ ١٤٦ .
(٤) ينظر : من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم : ٢٨ .

الزهريّ: «إعادة الحديث أشد من نحت الصخر» [١]، ثم عقّب بقوله: «وجملة القول في التَّرداد أنه ليس فيه حدٌّ يُنتهى إليه، ولا يؤتى على وصفه، وإنما ذلك على قدر المستمعين ومن يحضره من العوامِّ والخواصّ. وقد رأينا الله ردَّد ذِكْرَ قصَّة موسى وهود وهارون وشعيب... وكذلك ذِكرَ الجنة والنار وأمورٍ كثيرة؛ لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم، وأكثرهم غبيٌّ غافل، أو معانِد مشغول الفكر ساهي القلب» [٢].

٤. الترديد: عرّفه ابن رشيق بأنه: «أن يأتي الشاعر بلفظة معلّقة بمعنى، ثم يردَّها بعينها معلَّقة بمعنًى آخر» [٣]، فهو نوع من التجنيس، وكذا ورد عند ابن أبي الإصبع [٤] ويحيى العلوي (٧٤٩هـ) [٥].

٥. الاقتدار: عرّفه ابن أبي الإصبع (٦٥٤هـ) **بقوله: «هو أن يبرز المتكلم المعنى الواحد في عدة صور اقتداراً منه على نظم الكلام وتركيبه، فتارة يأتي به في لفظ الاستعارة، وطوراً يبرزه في صورة الإرداف، وآونة يخرجه مخرج الإيجاز، وحينا يأتي به في ألفاظ الحقيقة»** [٦]. وعلق المحقق حفني شرف «بأن هذا الفن من الأنواع التي سلمت للمؤلف!» [٧] والواقع

(١) البيان والتبيين: ١/ ١٠٤ – ١٠٥.

(٢) السابق بصفحتيه.

(٣) العمدة في صناعة الشعر ونقده: ١/ ٥٥٣.

(٤) ينظر: تحرير التحبير: ٢٥٣.

(٥) ينظر: الطراز: ٣/ ٤٧.

(٦) بديع القرآن: ٢٨٩.

(٧) بديع القرآن: ٢٨٩، وتحرير التحبير: ٥٣٨.

أنه أخطأ في ذلك، فالتصريف وجد قبله بكثير.

٦. المتشابه اللفظي: عرّفه الزركشي (٧٩٤هـ) بأنه: « إيراد القصة الواحدة في صور شتى، وفواصل مختلفة، ويكثر في إيراد القصص والأنباء، وحكمته التصرف في الكلام، وإتيانه على ضروب؛ ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك مبتدأ به ومتكرّرًا » [(١)] وصنفت فيه كتب قديمًا وحديثًا [(٢)].

وفُسِّرت دلالة المتشابه في قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣] بمعنيين:

أولهما: خاصّ، وهو أن: « تكون السورة فيها الآية في سورة أخرى آيةٌ تُشبِهها » [(٣)].

والمعنى الآخر: عامّ، وهو أنَّ القرآن يُشبِه بعضه بعضًا في الحسْن والتناسب والإعجاز، واستقامة النظْم، وصحة المعنى وجزالة اللفظ، ويفسّر بعضه بعضًا، ويُصدِّق بعضه بعضًا، فلا يتناقض، ولا يختلف [(٤)].

مناقشة المصطلحات:

بالنَّظر في مدى ملاءمة المصطلحات السابقة لكتاب الله يظهر تفوُّق

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ١/ ١١٢.

(٢) منها: متشابه القرآن للكسائي، ورسالة في متشابه التعبير باللفظ في آيات القرآن للسجستاني، وغيرهما كثير. وللاستزادة ينظر: من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم: ١٤-٢٩.

(٣) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٢١/ ٢٧٩.

(٤) ينظر: المفردات في غريب القرآن: شبه، ومفاتيح الغيب: ٧/ ١٣٨، وأنوار التنزيل: ٢/ ٧-٨.

مصطلح التصريف على الأربعة الأُوَل؛ فهو مصطلح قرآنيٌّ؛ لذا كان الأليق بأسلوبه، والأشمل لبيانه، بينما لا تسلم مصطلحات البشر من الخلل والقُصور والكراهة أو القبح والحشو أو النقد والطعن، وقد دعا إلى مصطلح التصريف من المحدَثين د.أحمد أبو زيد ود.عبد الله النقراط مقارنَين بينه وبين المصطلحات التي حاولت منافسته في الاستعمال، منبِّهَين على وجوب الاهتمام به وإحيائه؛ إذ هو الأليق بالبيان المعجِز. وذكرا أنَّ الوجوه والنظائر نوع من التصريف؛ إذ تأتي الكلمة الواحدة على لفظ واحد وحركة واحدة في مواضع مختلفة، وتؤدِّي في كلِّ موضع معنًى غير المعاني الأخرى حسب السِّياق الذي يضمُّها[1].

وتباينت آراء العلماء حول بقية المصطلحات المذكورة التي تقاربه، فرأى بعضهم أن التَّكرار والتَّرداد من الفصاحة والبيان؛ فأطلقوهما على بيان القرآن، وعارض آخرون وجودهما في القرآن بحجَّة أنهما لا يناسبان بيانه المعجز وتصرُّفه البديع. فالأَولى يُستبدَل التصريف بها[2]؛ فلا تَكرار ولا تَرداد في القرآن دون بلاغة، بل هو تصريف وبيان له مقاصد عالية ومرامٍ سامية، يرمي إليها في كلِّ مرة، وهذا سرٌّ من أسرار بلاغته التي أعجزت الإنس والجن فُرادى ومجتمعين؛ كما قال الله ﷻ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ

(١) ينظر : بلاغة تصريف القول : ٦٠، وعزاه إلى مصطلحات بيانية في القرآن : ١، ٦(بحث للدكتور أحمد أبو زيد لم ينشر).

(٢) ينظر : بلاغة تصريف القول : ١/ ٥١ .

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨]، فضلاً عن أن هذه المصطلحات من حيث الدلالة اللغوية تنصرف إلى التماثل، دون التقارب الذي يشمله التصريف.

أما مصطلح الاقتدار فهو عامّ؛ إذ أصل معناه يدلّ على مبلغ الشيء ومنتهاه وكنهه(١)، فهو لا يفصح عن تعريفه، بل يقترب في أصله من معنى البلاغة بعامّة، ولا يختصّ بالتحوّلات الأسلوبيّة والعدول في السياق.

ومصطلح المتشابه مع كونه مصطلحًا قرآنيًّا كذلك، إلاّ أنه لا يشمل جوانب التصريف، بل يدخل تحت مفهومه الذي يشمل معه التشابه المعنويّ واللفظيّ والنظميّ، ويحمل معه حكمة تصريف المتشابهات التي نصّ عليها الزركشيّ في تعريفه للمتشابه، فمصطلح التصريف إذن أثبت تفوقه على ما يقاربه من مصطلحات؛ لأنه الأجمع لما يندرج تحته، والأفضل والأليق بالبيان القرآنيّ المعجز.

* * *

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: قدر.

المبحث الثاني
أنواع التصريف في القرآن

تناولت التفاسير وكتب الإعجاز التصريف من اتجاهات عدّة تعود إلى جانبي الشكل والمضمون، وفيما يلي عرض لأنواع التصريف مرتبطة بأصليها في (الشكل والمضمون):

أولاً: التصريف في المعاني (المضمون):

عُدَّ الرّمانيُّ (٣٨٦هـ) من أوائل من استعملوا التصريف في الدراسات القرآنيّة، وجعله من وجوه بلاغة القرآن، ووضَّح المقصود من تصريف المعاني بأنَّه عقْدها في صور مختلفة على جهة التعاقُب. ففيه بيان معجز؛ إذ يُظهر المعنى بما يكتنفه من أبعاد تبرزه، وذلك لوجوه من الحكمة، منها تمكين العبرة والموعظة، والتصرُّف في البلاغة من غير نقصان عن المرتبة العليا، والحِجاج على أهل الضلال بتصريف المعنى الواحد في سياقات مختلفة، تتبوَّأ أسمى درجات البلاغة [(١)].

وأدرج الباقلانيُّ (٤٠٣هـ) التصريف ضمن وجوه الإعجاز مبيِّنًا تفرُّد القرآن به على سائر الكلام، بقوله: «وقد تأمَّلنا نظْم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرَّف فيه من الوجوه... على حدٍّ واحد في حُسن النظم، وبديع التأليف والرصْف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العُليا، ولا

(١) ينظر: النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): ١٠١- ١٠٢.

إسفال فيه إلى الرُّتبة الدنيا» [1].

وعقد ابن أبي الإصبع (٦٥٤هـ) بابًا بعنوان التصرُّف، عرّفه فيه بقوله: « هو أن يأتي الشاعر إلى معنًى فيُبرزه في عدّة صور، تارة بلفظ الاستعارة، وطورًا بلفظ الإيجاز، وآونة بلفظ الإرداف، وحينًا بلفظ الحقيقة... ولا شبهة في أنّ هذا إنما يأتي من قوّة الشاعر وقدرته، ولذلك أتت قصص القرآن الكريم في صور شتّى من البلاغة، ما بين الإيجاز والإطناب، واختلاف معاني الألفاظ» [2].

وجعل الزرقانيّ (١٣٦٧هـ) براعة القرآن في تصريف القول وثروته في أفانين الكلام من الخصائص التي امتاز بها بيانه الفذُّ، ذلك أنَّه «يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة، بمقدرة فائقة خارقة، تنقطع في حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء» [3].

وتدخل المقامات في مجال التصريف في المعاني، فينبغي للمتكلِّم مراعاة السمات الموضوعيّة لتحقيق مناسبة الكلام للمقام، ومطابقته لمقتضى الحال؛ إذ هو جوهر البلاغة؛ لذا دعَت العربيّة إلى مراعاته، وأولته فضل عناية، ومقامات الكلام متفاوتة، فمقام الترغيب يغاير مقام الترهيب، ومقام المدح يختلف عن مقام الذمّ، ومقام الكلام ابتداء يباين مقام الكلام في

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني : ٨٨ – ٨٩ .

(٢) تحرير التحبير : ٥٨٢-٥٨٣، وسماه في بديع القرآن الاقتدار كما ورد ص٧ من هذا البحث . بديع القرآن : ٢٨٩.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن : ٢/ ٢٦٦

الاستخبار أو الإنكار ومقام البناء على السؤال يتميز عن مقام البناء على الإنكار، ومقام التقديم يفترق عن مقام التأخير، ومقام الذكر مباين لمقام الحذف، وهكذا القصر وخلافه، والفصل والوصل، والإيجاز الإطناب والمساواة. وكما تتفاوت مقامات الكلام في ذلك تتنوّع مقامات الكلمة الواحدة، حتى ترى الكلمة تروق وتؤنس في موضع، ثم تثقل بعينها وتوحش في موضع آخر، فلكلّ نوع من الكلام مقتضًى غير الآخر[١].

وبإمعان الفكر في تصريف المعاني، وفي الأقوال التي وردت حولها تبرز بعض الجوانب الشكلية التي تتصرّف فيها هذه المعاني، وسأوضحها ببعض الشواهد:

ثانيًا: التصريف في الشكل (الصياغة):

١.التصريف في الألفاظ:

يدخل هذا التصريف في باب ما يسمّى بالمترادفات، ويوجِّه الخطَّابيُّ (٣٨٨هـ) إلى «وضع كلّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخصّ الأشكل به، الذي إذا أُبدل مكانه غيره جاء منه: إمَّا تبدُّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإمَّا ذَهاب الرَّونق الذي يكون معه سقوط البلاغة... لأنَّ لكلِّ لفظة منها خاصِّية تتميَّز بها عن صاحبتها في بعض معانيها، وإن كانا قد يشتركان في بعضها»[٢].

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ٢٥٦.

(٢) بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): ٢٩.

ويؤكد محمد أبو زهرة (١٣٩٤هـ) الترابط بين جانبي اللفظ والمعنى في التصريف بقوله: «وتصريف الألفاظ يتضمَّن لا محالة تصريف المعاني، لأنَّه لا مرادِف في القرآن، ولا يوجَد لفظان يؤدِّيان معنًى واحدًا من حيث الإحكام والدِّقَّة، ولا يوجَد أسلوب يؤدِّي معنًى يؤدِّيه الأسلوب الآخر، وإن كان يبدو باديَ الرأي أنَّ المعنيين يتَّحدان في جوهر المعنى، ولكن عند التأمُّل في الإشارات البيانيَّة التي تشير إليها الألفاظ، والتي تَطيف حولها وتشعُّ منها؛ تجدها مختلِفة، وإنَّ كلَّ تغيير في العبارات القرآنيَّة عن أخواتها في مثل موضوعها يُحدِث تغييرًا في المرامي ولمح القول، حتى الوقوف والفواصل تؤدِّي باختلاف نغمها ما لا تؤدِّيه مثيلاتها مما هو في موضوعها»[1]. وهذا التصريف وغيره يدخل فيما يسمَّى بالمتشابه اللفظيّ، وهو مفصّل في الكتب المخصصّة له، وسأقتصر في هذا المقام على أبرز ما في هذا النوع من التصريف؛ موردة ببعض شواهده:

١ .التصريف في حروف المعاني: في التوكيد والجرّ والنصب والنفي والعطف والابتداء والاستفهام وغير ذلك، ومما جاء من تصريف حروف المعاني في التوكيد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [سورة البقرة]، وقوله تعالى: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾[سورة آل عمران]. فأكد الذّمّ باللام في سورة البقرة، وجاء دون توكيده في آل عمران.

(١) المعجزة الكبرى : ٢٣٠ .

٢.التصريف بوضع كلمة مكان أخرى سواء اختلفتا في المعنى أو في الصيغة أو في الجمع والإفراد أو في التنكير والتعريف، أو في الفك والإدغام، ومن الاختلاف في المعنى قول الله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة البقرة]، وقوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [سورة البقرة] [١].

٢.التصريف في زمن الأفعال:

حظي تلمُّس النّكات البيانيَّة في زمن الأفعال بالتعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه بعناية البلاغيِّين؛ فعالجوه من جهات مختلفة، فتارة يذكرونه في الالتفات بمعناه العامّ كما فعل ضياء الدين بن الأثير (٦٣٧هـ)، فها هو ذا يفصح عن السر البيانيّ في التعبير بالمستقبل عن الماضي بقوله: «اعلم أنَّ الفعل المستقبل إذا أُتِي به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ في الإخبار بالفعل الماضي؛ وذلك لأنَّ الفعل المستقبل يوضِّح الحال التي يقع فيها، ويستحضِر تلك الصورة حتى كأنَّ السامع يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضي... وهكذا يُفعَل بكلِّ فعل فيه نوع تميُّز وخصوصيَّة كحال تستغرب، أو تهمُّ المخاطب أو غير ذلك»[٢].

(١) ينظر في تفصيل كل فرع من هذين النوعين الأساسيين والاستشهاد على كل هذه الفروع: متشابه الفواصل القرآنية دراسة بلاغية : ٦٧-٢٦٠.

(٢) المثل السائر : ٢/ ١٢، ١٣

ويضيف مبيِّنًا وجهة نظره حتى لا يبقى فيها موضع شُبهة على مُعترِض: «فإنْ قيل: إنَّ الفعل الماضي أيضًا يتخيَّل منه السامع ما يتخيَّله مِن المستقبَل. قلتُ في الجواب: إنَّ التخيُّل يقع في الفعلين معًا، لكنَّه في أحدهما - وهو المستقبل - أوكد وأشدُّ تخيُّلاً؛ لأنَّه يستحضِر صورة الفعل، حتى كأنَّ السامع ينظر إلى فاعلها في حال وجود الفعل منه... وهذا لا يوجَد في الفعل الماضي؛ لأنَّه لا يتخيَّل السامع منه إلاَّ فعلاً قد مضى من غير إحضار للصورة في حالة سماع الكلام الدالِّ عليه، وهذا لا خلاف فيه»[(١)].

وأمَّا بلاغة التعبير بالماضي عن المستقبل فيذكُر في قيمتها: «أنَّ الفعل الماضي إذا أُخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجَد بعد؛ كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأنَّ الفعل الماضي يعطي من المعنى أنَّه قد كان ووُجد، وإنَّما يُفعَل ذلك إذا كان الفعل المستقبَل من الأشياء العظيمة التي يُستعظَم وجودها. والفرق بينه وبين الإخبار بالفعل المستقبل عن الماضي أنَّ الغرض بذاك تبيين هيئة الفعل واستحضار صورته، ليكون السامع كأنَّه يشاهدها، والغرض بهذا هو الدلالة على إيجاد الفعل الذي لم يوجَد» [(٢)].

ولم يقتصر الحديث في التعبير بالماضي عن المستقبل وعكسه في موروثنا البلاغيِّ على الالتفات بمعناه العامّ كما رآه ابن الأثير، بل اختلفت طرائق البلاغيِّين وتباينت نظراتهم نحوه وتعاورته عدَّة مصطلحات

(١) السابق: ٢/ ١٤

(٢) المثل السائر: ٢/ ١٥، ١٦

كمخالفة مُقتضَى الظاهر[(١)]، والعدول والصرْف. وأدخله ثلَّة من البلاغيِّين في باب الاستعارة التبعيَّة[(٢)]. وذهب ابن عرفة الدسوقيّ (١٢٣٠هـ) إلى أن كلَّ خروج على مقتضى الظاهر مجاز[(٣)].

وليس تتبُّع الفنِّ وباب وروده هو مصبّ اهتمام هذه الدراسة، بل غاية مرادها توصيف أسلوبه ولفت الأنظار إلى تذوُّق الناحية الإبداعيَّة الجماليَّة فيه. والرأي الذي أميل إليه هو معالجته في تصريف القول؛ الذي يُعنى بسياقات التحوُّل الأسلوبيِّ.

ومما ورد في تصريف الزمن من المستقبل إلى الماضي قول الله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الزمر:٧٣-٧٤].

لقد صُوِّر الموقف بتصريف الزمن من المستقبل إلى الماضي ليشعر المتلقِّي معه كأنما الحدث قد وقع، وليس إخبارًا عن مستقبل، فتتجلّى بلاغة تصريف الزمن في التعبير بالماضي عن المستقبل في الأفعال: ﴿ وَسِيقَ ﴾ ﴿جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ ﴾ ﴿وَقَالَ ﴾ ﴿ طِبۡتُمۡ ﴾ ﴿ وَقَالُواْ ﴾ ونحوها في المشهد

(١) ينظر : تقرير الإنبابي : ٢/ ٣٠٧

(٢) ينظر : عروس الأفراح (ضمن شروح التلخيص) : ٤/ ١١١

(٣) ينظر : حاشية الدسوقي (ضمن شروح التلخيص) : ١/ ٤٨٧

السابق، فكأنَّ تيك الأحداث تجاوز الزمن وتطويه، لتجعل المتلقّي يتأمَّل ما حدث في عرصات القيامة بعد أن مرّ فيها قطيع الكفَرة وقد عتِلوا إلى عذاب السعير، وتلقّتهم زبانية جهنَّم بالتوبيخ، وفي الجانب الآخر يبدو إشراق الصورة في موكب البرَرة؛ إذ سيقوا مكرمين إلى جِنان الخلود، والتشريف حافٌّ موكبهم، بعد أن تلقَّتهم خزنتها بالتكريم. وليس أبلغ في تقرير هاته الصور الغيبيَّة الغريبة على النفوس الأرضيَّة من هذا التعبير؛ فهو يخاطبها بما يدنو من حسِّها ورؤاها المحدودة، بعد نقلها إلى المحيط الذي تقع فيه الأحداث[1].

وكذا ورد هذا التصريف في حكاية القول بضمير المتكلِّمين ﴿صَدَقَنَا﴾﴿ وَأَوْرَثَنَا ﴾ فكأنما سُمعت هينمات أولئك الآمنين بعدما امتلأت نفوسهم راحة واطمئنانًا لاهجة بالتسبيح والتحميد والتحدُّث بنعمة الله كما هي عادتهم في كلِّ مواقف الأمن والسعادة؛ فالجنة هي الأرض التي تستحقّ أن تورث. يسكنون فيها حيث شاءوا وينالون منها ما يريدون[2].

ثم ينتقل البيان القرآنيّ لتجديد نشاط المتلقِّي في استحضار الصورة بنقل الزمن إلى المضارع ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ في السياق نفسه؛ لاستحضار الصورة وبثّ معاني التجدُّد والحدوث في الاستقرار والسكن في أيِّ مكان أرادوه من الجنان.

(١) ينظر : خصائص التراكيب : ٢٦٧

(٢) ينظر : تيسير الكريم الرحمن : ٧٣١، وفي ظلال القرآن : ٧/ ١٥٧

٣.التصريف في التراكيب (علم المعاني):

العلم الذي يبحث في التراكيب وأثرها في تأدية المعنى هو علم المعاني، وعرّفه السكاكيّ (٦٢٦هـ) بأنه: «تتبُّع خواصّ تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتَّصل بها من الاستحسان وغيره؛ ليُحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره» (١). والتتبُّع يناسب البلاغة بصبغتها التذوقيّة الجماليّة؛ التي أداتها بعد توخِّي معاني النحو ذائقة فنِّيّة تعي أسرار تخيُّر اللفظ والتركيب في سياق معين تبعًا لمقتضى الحال.

وربط أبو السعود (٩٨٢هـ) في تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾[الأنعام: ٤٦] بين التصريف والتراكيب مشيرًا إلى تنوّع المقامات بقوله: «أي: نكرِّرها ونقرِّرها مصروفة من أسلوب إلى أسلوب، تارة بترتيب المقدّمات العقليَّة، وتارة بطريق الترغيب والترهيب، وتارة بالتنبيه والتذكير» (٢).

وذكر الزرقاني (١٣٦٧هـ) من خصائص إعجاز القرآن أنه «يفتنُّ في أداء المعنى الواحد بألفاظ وطرق متعدِّدة، بين إنشاء وخبر، وإظهار وإضمار، وتكلُّم وغَيبة، وخطاب ومُضيّ، وحضور واستقبال، واسميَّة وفعليَّة، واستفهام وامتنان، ووصف ووعد ووعيد إلى غير ذلك» (٣).

وقال الرافعيُّ (١٣٦٥هـ): «وإنك لَتحار إذا تأملتَ تركيب القرآن،

---

(١) مفتاح العلوم : ٢٤٧.

(٢) إرشاد العقل السليم : ٢/ ٣٨٣، وينظر : أنوار التنزيل : ٢/ ٤٠٩ .

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن : ٢/ ٢٦٦، ٢٦٩ - ٢٧٠ .

ونظْم كلماته في الوجوه المختلفة التي يتصرَّف فيها، وتقعد بك العبارة إذا أنت حاولتَ أن تمضيَ في وصفه، حتى لا ترى في اللغة كلِّها أدلَّ على غرضك، وأجمعَ لما في نفسك، وأبينَ لهذه الحقيقة، غير كلمة الإعجاز... فترى اللفظ قارًّا في موضعه؛ لأنَّه الأليق في النظم، ثم لأنَّه مع ذلك الأوسع في المعنى، ومع ذلك الأقوى في الدّلالة، ومع ذلك الأبدع في وجوه البلاغة، ومع ذلك الأكثر مناسبة لمفردات الآية مما يتقدَّمه، أو يترادَف عليه» [(١)]. وهذا النوع كسابقه يدخل أيضًا في باب المتشابه اللفظي، ويشمل التغاير في التراكيب التي تتقارب في المعنى، وسأستشهد عليه بآيات دون توضيح ما فيها من المتشابه فهي مفصّلة في كتب المتشابه لمن أراد الاستزادة[(٢)]:

فيأتي التشابه في التراكيب من جوانب عدة منها:

١. **الإطلاق والتقييد**: ومنه قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ سورة البقرة، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ سورة النحل.

٢. **التقديم والتأخير**: منه قول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ٢٤٧ .

(٢) ينظر: متشابه الفواصل القرآنية دراسة بلاغية : ٢٦١-٣٤٥ .

لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ سورة التوبة، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ سورة هود.

٣. **الجملة الاسمية والفعلية**: من هذا التشابه قول الله تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾، وقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾﴾ بعد قوله تبارك تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾، سورة الكافرون.

٤ .**القصر**: منه قول الله تعالى: (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ سورة آل عمران، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الرعد: ١٩].

٥ .**الفصل والوصل**: ومن ذلك قولهُ جَلَّ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[سورة البقرة:٥٨]. وقولهُ عَزَّ: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[سورة الأعراف: ١٦١]. والفاصلة في آية البقرة موصولة بما قبلها، وفي الأخرى مفصولة.

٤.التصريف في الصور (علم البيان) :

العلم الذي يبحث في وجوه التصوير هو علم البيان، وعرّفه السكَّاكيّ (٦٢٦هـ) بأنَّه «علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه» [(١)]، وأضاف السعد (٧٩٢هـ) إلى هذا التعريف أمرًا مهمًّا يجب التفطُّن إليه، هو مطابقة الكلام المدلول عليه لمقتضى الحال[(٢)]، ولا عجب أن يحرص السعد على هذا القيد فعليه مدار البلاغة.

كلَّما أمعن المتدبِّر فكره في عناصر البيان القرآنيِّ المختلفة، وصبر على فَهم الدلالات البادية واللطائف الكامنة، ونَظَر في الأدوات والوسائل والطرائق؛ وقف على ثراء في المعاني لا ينفد، وبراعة في الأداء لا تُحَدّ، وتصريف في البيان يتجدَّد. فالقرآن لا يلتزم طريقًا واحدة من طُرق الكلام، بل يعبِّر في السياق الواحد أو الموضوع الواحد بأفانين مبدِعة من القول تجعل المعنى نابضًا بالحياة والجلال.

ولفت ابن أبي الإصبع (٦٥٤هـ) الأنظار إلى ارتباط التصريف بفنون البيان –كما سبق– بقوله: «هو أن يأتي الشاعر إلى معنى فيبرزه في عدة صور، تارة بلفظ الاستعارة، وطورًا بلفظ الإيجاز، وآونة بلفظ الإرداف، وحيناً بلفظ الحقيقة » [(٣)]، وكرّر التعريف نفسه تحت مصطلح الاقتدار[(٤)].

(١) الإيضاح : ٢٠١، وينظر : مفتاح العلوم : ٤٣٧ .

(٢) ينظر : المختصر (ضمن شروح التلخيص) : ٣/ ٢٥٨ .

(٣) تحرير التحبير: ٥٨٢ .

(٤) بديع القرآن : ٢٨٩، وسبق إيراد تعريف الاقتدار ص٧ من هذا البحث.

فلا ريب أن المتلقِّي يسير وراء البيان الفذّ في تصريفه، وتجدُّد معانيه بسبل صياغتها المتنوِّعة وقوالبها المختلفة من تشبيه إلى كناية، ومن حقيقة إلى مجاز، فيراها تتفتَّق عن لطائفَ بيانيَّة خلاَّبة تتنافس في تقرير المعاني وترسيخها، ولا يخفى ما في تخيُّر أحد هذه الفنون على أقرانه من جوانب في التمايُز البلاغيّ، وميزان للتفاضُل في القول. وأسرار بلاغية يجعل البيان المعجِز كنزًا لا تفنى فرائده، وفيضًا زاخرًا لا تنقضي أمداده.

ومن شواهد التصريف في فنون البيان: تصوير الرهبة التي اختصَّت بها النفوس المؤمنة الشفَّافة عند سماع الآيات، رقيًّا في مدارج الكمال الإنساني، صُرِّف هذا المعنى بطرق عِدَّة في البيان المعجز، ومنها قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة الأنفال]، فيه تصوير للوجل الذي يعتري القلوب المؤمنة عند ذكر الله تهيُّبًا واستعظامًا، يتبدَّى في معنًى حقيقيٍّ يُسلَّط الضوء فيه على القلب أمير البدن وحاكمه؛ ليتبيَّن تغلغُل الخوف من الله في تلك النفوس الطاهرة التي مُدِحت بهاته الصفة.

وبهذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [سورة المؤمنون].

وفي تصريف آخر تُصوَّر أصالة الجوهر المؤمِن في حركة ظاهريَّة تُعرَض على وجه الحقيقة بالصوت والصورة، فما تُتلى عليهم آيات الرحمن حتى يخروا سُجَّدًا وبُكِيًّا، كما وصفهم ربهم ﷻ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟

سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ﴾ [سورة مريم]، وقوله عزّ من قائل: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة السجدة]. ويأتي التصريف في سياق آخرَ مادحًا تيك النفوس ومعرِّضًا بمن سواها؛ ليبيِّن عُمق الهوَّة بين الفريقين، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [سورة الفرقان].

وينافس المجاز العقليُّ الحقيقةَ في رسم صورة تنضح بخشية الله، يصوِّرها في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [سورة المائدة] لافتًا الانتباه إلى العين مرآة النفس وهي تفيض من الدمع، وإذا الينبوع الذي تسيل منه مخايل الرجولة الناضجة هو نفسه الذي تسيل منه معاني اليقين الحيّ! وليس أرقّ ولا أصفى من دموع التائبين في جِلاء صفحة النفس وإظهار روائها.

وتأخذ الكناية مكانها منافِسة تلكم الصور بذكر اقشعرار الجلود لازم الخشية؛ ليتمَّ به استحضار هذه الصفة العظيمة في الذهن مقرونة بدليلها، في قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة الزمر: ٢٣].

هكذا ينقلك البيان القرآنيُّ بتصريفه المبدِع من فنن إلى فنن، ومن صورة إلى صورة، فترى المعاني نديَّة مطواعة لصُوَرِه.

٥.التصريف في أساليب الحِجاج:

تـصريف الأدلّـة والحجـج والقـضايا، وتنويعهـا في الموضـوعات المختلفة بأساليب شتّى، من الأمور المهمّة التي يجب تعلُّمها في الاحتجاج والجدل، يقول ابن سينا (٤٢٨ هـ) مبيِّنًا قيمة التصريف: «ينبغي لمن أراد أن تحصل له ملَكة الجدل أن يتعوّد عكس القياس بالنقيض والضدّ، فيتوسّع في إناء القياسات. وربما اقتدر على أن يتلطّف متى شاء في ذلك، فينقض القياس من نفسه، إذا أمكن أن يُخفيَ صورة العكس، ووجد الشهرة تعينه.

ويجب على الجدليّ أن لا يزال يطلب الدربة بالاحتجاج للشيء الواحد من المواضع المذكورة بحجج كثيرة، ثم يعود، ويحتجّ لمقابله من مواضع أخرى، فتارة يعاند مقدِّمات تلك الحجج، وتارة مقدِّمات هذه الحجج التي تقابلها؛ فإنَّ ذلك يخرجه، وخصوصًا إذا كان جيِّد الطبع، حَسَن الاختيار للأفضل، والاجتناب للأخسّ، وأن يتحفّظ في المسائل الخلافيّة المشهورة، ويحفظ حجج الإثبات والإبطال فيها »[(١)].

فلا غرو أن يأتي تصريف الحجاج في مثل البلاغة الأسمى على أرفع المستويات مثبتًا قضايا العقيدة الكبرى: الألوهيّة والربوبيّة والنبوّة والبعث والحساب. يقول ابن القيّم (٧٥١هـ) عن تصريف الحجج في قضايا العقيدة الكبرى: «إذا تتبّع المتتبِّع ما في كتاب الله مما حاجّ به عباده في إقامة

(١) المنطق: ٢/ ١٤٤.

التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات الرسالة والنبوّة، وإثبات المعاد، وحشر الأجساد، وطرق إثبات علمه بكلِّ خفيٍّ وظاهر، وعموم قدرته ومشيئته، وتفرّده بالملك والتدبير، وأنّه لا يستحقّ العبادة سواه؛ وجد الأمر في ذلك على ما ذكرناه من تصرُّف المخاطَبة منه سبحانه في ذلك على أجلّ وجوه الحِجَاج، وأسبقها إلى القلوب، وأعظمها ملاءمة للعقول، وأبعدها من الشكوك والشُّبَه في أوجز لفظ وأبينه وأعذبه وأحسنه وأرشقه، وأدلّه على المراد» [1].

ويقف ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) عند قول الله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٤٦] مبيّنًا هذا النوع من التصريف في الحجاج وما يتبعه من دلائل التفكُّر في الأنفس والآفاق في قوله: «وتصريف الآيات اختلاف أنواعها بأن تأتي مرة بحجج من مشاهدات في السماوات والأرض، وأخرى بحجج من دلائل في نفوس النَّاس، ومرة بحُجج من أحوال الأمم الخالية التي أنشأها الله، فالآيات هنا هي دلائل الوحدانيَّة، فهي متَّحدة في الغاية مختلفة الأساليب متفاوتة في الاقتراب مِن تناول الأفهام عامِّها وخاصِّها، وهي أيضًا مختلفة في تركيب دلائلها من جهتي المقدّمات العقليَّة وغيرها، ومن جهتي الترغيب والترهيب ومن التنبيه والتذكير، بحيث تستوعب الإحاطة بالأفهام على اختلاف مدارك العقول» [2].

(١) الصواعق المرسلة: ١/ ٤٦٠ .

(٢) التحرير والتنوير: ٦/ ١٠٥

فالتصريف في الأساليب الحِجاجيّة، يكون بالتعبير عن الموضوع الواحد بأفانينَ مبدِعةٍ من القول، فتتنوّع أساليبه تبعًا للموضوع، ونوع المخاطب، والغرض الذي يأتي الحجاج من أجله فتارة يبكّت الخصم ويفحمه من أقرب الطرق، وحينًا يسلك معه مسلك المجاراة، أو الاستدراج، أو الكلام المنصف، وآونة يأتيه بالتسليم العقليّ؛ ليستثير ذهنه للتفكير، ووقتًا يسلك معه سبل الاستدلال المختلفة المبنيّة على مقدِّمات ونتائج[١].

تصريف المعاني الحِجاجيّة في عقيدة البعث والجزاء:

والبعث من الأمور الغيبيّة التي لا يمكن للإنسان الإحاطة بكلِّ تفاصيلها، فقواه «الحسِّيَّة والعقليّة تقف في حقيقة المصير عند أمرين:

الأوّل: إثبات ظاهرة الموت؛ لأنّ آثارها مشاهَدة محسوسة.

والثاني: إثبات حتميّة وجود جزاء بعد الموت، ومفارقة هذه الحياة.

دون أن تستطيع الوصول إلى تفاصيل ذلك، وأنَّى للإنسان أن يصل إلى معرفة تفاصيل المصير بقواه القاصرة وعلمه المحدود؟ »[٢] لكن عقول الكفَرة أبت التسليم بهذه العقيدة، فجاء الحجاج على أهل الضلال في قضية البعث مصرَّفًا في معانيَ عدّة وأساليب متنوِّعة:

١. عرْض افتراءات المنكرين، والردّ عليها بأنّ البعث حقيقة غيبيّة

---

(١) للاستزادة من أساليب الاحتجاج ينظر : بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم.

(٢) أصول الإيمان بالغيب وآثاره : ٣٧٥- ٣٧٦.

واقعة، لكنّ علّة التصديق تكمن في نفوسهم؛ إذ قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾[سورة المؤمنون]، ورأوا في عقيدة البعث من العجب ما بلغ الغاية، فانطلقوا يستهزئون بالنبيّ ﷺ، ومن ذلك ما جاء عنهم في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾[سورة سبأ].

وما أبلغ الردّ عليهم بالإضراب عن افتراءاتهم التي حاولوا أن يلبسوها لبوس المنهج العلميّ، ومضَوا يقسّمونها طعنًا في النبيّ ﷺ إذ دعاهم إلى الإيمان بعقيدة البعث؛ لكن تبيّن بالسبر بطلان ادعاءاتهم، فحُجُّوا، ودُمغت افتراءتهم، وأُظهر السبب الرئيس في هذا العجب، الذي يكمن في نفوسهم المِراض، وعقولهم القاصرة عن الإيمان بالآخرة، والتسليم بالغيبيَّات.

٢. سرْد القصص المشهودة التي عاينها المنكرون بأنفسهم في الدنيا: نحو ما جاء في قصّة بقرة بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾[سورة البقرة].

ومنها قصّة أولئك الخارجين من ديارهم فرارًا من الموت، حين أماتهم الله ثم بعثهم، كما قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ

وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ ﴾[سورة البقرة].

٣. قياس بعث الأموات على أحوال أخرى معهودة لدى المنكرين، كما في قول الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾[يس: ٧٨ - ٨١].

وقد اشتهر القياس في قضيّة البعث والحساب التي ينكرها المشركون ولا تتصوّرها عقولهم، فاستُدلّ عليه بالقياس بطرق عدّة، لا يكاد يخلو منها كتاب يتحدّث عن جدل القرآن وأدلّته العقليّة[١]، أعرضها مرتّبة وفق ترتيب الآيات في المصحف:

أوّلها: قياس الحياة بعد الموت على اليقظة بعد النوم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾[الأنعام: ٦٠].

ثانيها: قياس إعادة الإنسان بالبعث على ابتداء خلقه، قال تعالى:

(١) ينظر : الرد على المنطقيين: ٢/ ٦٨- ٧٠، وأعلام الموقعين : ١/ ١٣٠، والبرهان في علوم القرآن : ٢/ ٢٦، والإتقان : ٤/ ٥٣- ٥٤ .

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٢٩]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٤] .

ثالثها: قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات، نحو: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [سورة الروم: ١٩].

رابعها: قياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [سورة يس]، وقد اجتمع في هذه الآية قياسات عدّة: الإعادة على الابتداء، والإعادة على إخراج النار من الشجر الأحضر، والإعادة على خلق السماوات والأرض.

خامسها: قياس الإعادة على خلق السماوات والأرض نحو: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة غافر: ٥٧].

٤. ويأتي الاستدلال على حتميَّة البعث ببيان علّته، وذلك نحو قول الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة النحل].

وهكذا يقرِّر القرآن حقيقة الموت والبعث في غير آية، وبطرق متنوِّعة تتنافس في تقريب المعنى وتأكيده؛ فليس أثر دقَّة على مِسمار كدقَّتين، ولا

رشْفة ماءٍ على قلبٍ صادٍ كرشْفتين.

٦. التصريف في القَصص:

للقَصص القرآنيِّ نصيب وافر من تصريف القول، فتارة يُنظَر إلى جِدَّة عَرْض القصَّة الواحدة وتنوُّع طرائقها التعبيريَّة من سياق لآخر على ضوء التناسُب بين القصة ومقصود السورة التي ضمَّتها، والعبرة التي انطوت عليها. وتارة أخرى يُنظَر إلى تصريفها في السياق الواحد وما يحمله من تقابُل في المعاني، وبراعة في الانتقال بينها، وإحكام في الربط بين حلقاتها، وإبداع في النظم والصياغة. وكلُّ هذا يكسوها حُلَّة قشيبة في كلِّ مرَّة، ويجنِّبها التَّكرار والإملال. لذا قامت كثير من الدراسات حول القصص القرآنيِّ – قديمًا وحديثًا – تتناوله من جانب المتشابِه اللفظيِّ والتناسب مبيِّنة أسرار تصريف القول فيه من سياق إلى آخر.

فقد تنبَّه الرمانيُّ -كما تقدم – إلى هذا النوع البديع من التصريف، وأشار الباقلانيّ إلى بلاغته بقوله: «قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصَّة الواحدة، ورأيناه [أي: القرآن] غير مختلِف ولا متفاوت، بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنَّه ممَّا لا يقدر عليه البشر؛ لأنَّ الذي يقدرون عليه قد بيَّنَّا فيه التفاوت الكثير عند التَّكرار، وعند تبايُن الوجوه، واختلاف الأسباب... والقرآن على اختلاف ما يتصرَّف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة، يجعل المختلِف كالمؤتلِف والمتباين كالمتناسِب» [(١)].

كما سلَّط محمد أبو زهرة الضوء على قيمة هذا التصريف بالقصص

(١) إعجاز القرآن للباقلاني: ٨٨ – ٨٩.

قائلاً: «من صور التصريف البيانيّ بالقصص القرآنيِّ بيان بعض الأحكام الشرعيّة، فإنّ ذلك يثبت هذه الأحكام ويدعمها» (١).

ويعرض د.محمد عبدالعظيم المطعنيّ (١٤٣٠هـ) قضية تصريف حكاية الأحداث في القرآن بقوله: « لماذا اختلفت أساليب الحكاية والمحكي عنه واحد؟ والجواب:

أولاً: أن الاختلاف راجع في الأغلب إلى اختلاف الأحوال، ففي كلِّ عبارة جاءت على منهج معين؛ رعاية ومناسبة لمقام الحديث، ويتَّصل بهذا المظهر من مظاهر التحدِّي، حيث يكون المعنى الأصل واحداً، ويحدث بتكراره زيادات ومعان ثانية لم يزدد بها إلا حلاوة وطلاوة، على خلاف المعهود في بلاغة الناس، فإن التَّكرار فيه يعرِّضه للقوَّة والضعف والتهافت، وإن وُفق في موضع خُذل وسقط في موضع آخر.

ثانياً: الفروق اللفظيّة التي يجيء عليها التَّكرار، عندما نبحث عن أسرارها يتجلّى لنا بوضوح لماذا آثر القرآن لفظًا على لفظ، وأسلوبًا على أسلوب مما يؤدِّي في النهاية إلى الإقرار اليقينيّ بإعجاز القرآن » (٢).

وتأتي القصة القرآنيّة في مواضع مختلفة من كتاب الله تعالى، ومن حكمته في ذكر القصّة ذاتها في سور عدّة متباينة فيما يذكر منها ومتغايرة في أسلوبها ومختلفة إيجازًا وإطنابًا، تقديمًا وتأخيرًا، وفي اكتمال جوانبها، فتُذكر القصة موجزة أحيانًا، وتُسلِّط الضوء على مرحلة معيَّنة بأحداث جديدة،

(١) المعجزة الكبرى القرآن : ٣١٢ .

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: ١/ ٣٦٥ .

وأحيانًا ترد في سياق مطنَب حافل بالتفاصيل التي يتطلبَّها المقام، وآونة ترد الأحداث نفسها بتصريف في أسلوبها، فهي لا تتكرّر، إنما تتصرّف وتتكامل، وتوجِّه الأنظار إلى جوانب منها تتعلَّق بما ترد فيه من السياقات، وترتبط بالتناسب والمتشابه، والمتتبِّع لقصص الأنبياء يجد مصداق ذلك فيما تكرَّر ذكره منها.

ويعقد محمد أبو زهرة مبحثًا بعنوان: قصص القرآن لون من تصريف بيانه. يذكر فيه كيف تتنوع القصص وتصوّر مشاهدها بالعبارات فكأنها ترى، وكأن الإنسان يعيش وقائعها لتنساب إليه العبرة في غير التباس[(١)]، ومن الشواهد على التصريف في القصص القرآني:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)﴾[البقرة: ٧٢ –٧٣].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤)﴾ [البقرة: ٢٤٣ – ٢٤٤].

جاء الاستدلال في الشاهدين على البعث بقصتين مغزاهما واحد هو إثبات قدرة الله على البعث، وصُرِّفت كلٌّ منهما بطريق يناسب سياقها ومقامها.

(١) ينظر: المعجزة الكبرى القرآن: ٢٠٣– ٢٢٧ .

٧. التصريف في الأمثال:

المَثَل هو «تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر» (١).

يقول د.عبد الغنيّ الراجحيّ عنه: «قد يُقال في ضابطه: إنّه جملة من القول تستقلّ بذاتها، وتشتهر بالقبول والتداول، فتنتقل عما وردت فيه أوّلاً، إلى كلّ ما يصلح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها، وقد يُتوسَّع في ضابطه، فيمتدّ إلى كلّ كلام بليغ شائع حَسَن مشتمِل على تشبيه رائع، أو استعارة تمثيليّة، أو كلمة جامعة، أو موعظة نافعة، أو كتابة بديعة، ثمَّ إنّه كثيرًا ما يُطلَق- لاسيما في القرآن الكريم- ويُراد به الحالة والشأن القريب، والوصف العجيب، والقصّة الطريفة –سواء كان في الكلام تشبيه أم لا» (٢).

ويتبين التصريف في الأمثال بتدبر الشاهدين الآتيين:

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾[الأنعام: ٧١].

قال تعالى:﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ

(١) أعلام الموقعين : ١/ ١٥٠ .

(٢) النهج القويم في دراسة علوم القرآن : ٥٣- ٥٤ .

تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ [الحج :٣١]

هذا مثَلان ضربهما الله ﷻ للضلالة والحَيرة التي تكتنف من يرتدّ بعد الهداية، ومن يتوزّع قلبه بين صراط الحميد، وآلهة متعدِّدة من العبيد! فلا يدري من أين أقبل، ولا أين يريد! ويتفرَّق إحساسه؛ فيتخبّط في تيه لا نهاية له، هائمًا على وجهه في الفلوات والبيد. جُعل هذا المثل مقدِّمة يتّرتب عليها نتيجة تقرِّر أنّ الأمن في ظلّ عقيدة التوحيد، بينما الخوف والحَيرة في هجير الشرك، والضلال البعيد، ففي الأول استهوته الشيطان وتوزعته حيرة الشرك وأصحابه يدعونه إلى الهدى، وفي المثل الآخر سقط سقوطًا مريعًا من السماء فتخطفته الريح وطوحت به في مكان مفزع بعيد جدًّا.

وبتدبر ما يشمله التصريف في البيان القرآني، يتبين أنه لا يقتصر على الأنواع المستنبطة السابقة، بل يمكن أن يأتي في وجوه المخاطبات التي تأتي لمعين أو لغير معين، وكذا تختلف في مجال المدح والذمّ والترغيب والترهيب والوعد والوعيد والتكريم والتوبيخ إلى غير ذلك(١)، ويأتي التصريف في الفواصل القرآنية(٢)، وكذا في الخبر والإنشاء والتعبير بكل واحد منهما عن الآخر، ولا يكفي المقام لتفصيل كل الأنواع، فحسبي من القلادة ما أحاط بالعنق، ومن أراد الاستزادة يمكنه الرجوع إليها.

---

(١) للاستزادة من التصريف في وجوه الخطاب، ينظر : وجوه الخطاب في سورة الإسراء، رسالة ماجستير لسارة البديع.

(٢) للاستزادة من التصريف في الفواصل القرآنية، متشابه الفواصل القرآنية دراسة بلاغية، لسارة البديع.

المبحث الثالث
القيمة البلاغيّة للتصريف

أبان القرآن الكريم في غير آية عن سرِّ تصريف بيانه المعجِز كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء:٤١]، وقوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنعام: ١٠٥]. وجاء لفظ التصريف المقصود من هذا البحث الذي يتضمن التحول الأسلوبي باختلاف السياق في عشر آيات[(١)].

وقال الخطيب الإسكافيُّ (ت٤٢٠هـ): «إذا أورد الحكيم -تقدَّست أسماؤه- آية على لفظة مخصوصة، ثم أعادها في موضع آخر من القرآن، وقد غيَّر فيها لفظة عمَّا كانت عليه في الأولى، فلا بدَّ من حكمة هناك تطلب، وإن أدركتموها فقد ظفرتم، وإن لم تدركوها، فليس لأنَّه لا حكمة هناك، بل جهلتم»[(٢)].

وتتلخص **القيمة البلاغية للتصريف فيما يأتي:**

١. إبراز المعنى بما يكتنفه من أبعاد مختلفة، بطرق متباينة تؤديه أتمّ أداء وأوفاه.

---

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٤٠٨.

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل: ١/ ٢٥٠-٢٥١.

٢. التصرُّف في البلاغة من غير نقصان عن المرتبة العليا؛ فللتصريف قيمة عظيمة في أداء المعاني وتقريرها، وهو «فنٌّ بيانيٌّ دقيق المسلك، بعيد الغَور، يتسنَّم به الكلام ذروة البلاغة. وهو سرٌّ عظيم من أسرار إعجاز مَثَل البيان الأسمى في معانيه وعرض موضوعاته، فمع تفرُّق المعنى الواحد في القرآن، وتبايُن أوقات نزوله، إذ به يمثِّل وَحدة متكاملة يعرضها البيان الخالد وَفق نظام بديع، تنساب ألفاظه ملائمة لسياقها وموضوعها والعبرة التي تنطوي عليها في انسجام عجيب، وسبك متين، وتفنُّن دقيق»[1].

٣. **التأثير في نفوس المخاطَبين على اختلاف أنواعهم بطرق متعدِّدة، وصولاً إلى الإقناع والإذعان:** فـ «التعامل مع النفس البشريّة بجميع قواها لغايات الإقناع والتغيير، والاستجابة والتأثير، يقتضي التنويع في الأساليب والوسائل التي لها قدرة على تحريك هذه القُوى، فالضرب على أوتار النفس المتعدِّدة من شأنه أن يُخضِع النفس، ويقهر تفوُّقها في الجدَل»[2].

ويلفت محمد أبو زهرة الأنظار إلى هذا النوع من التصريف مع ربطه بالأغراض البلاغيَّة في قوله: «عند توجيه الله تعالى نظر المجادِل إلى الحقائق من غير اتجاه إلى إلزام من أوَّل الأمر، أو بعد إلزامه وإفهامه يكون تصريف البيان ومناحي التأثير، وتكون العبارات التي تخاطب العقل والوجدان، وتمسّ مواطن الإحساس، وتتنوّع المناهج، وتتضافر المعاني، وللألفاظ جدّتها وطلاوتها، ومع التكرار أحيانًا تزداد الفائدة، وتكثر الثمرات،

(١) التصوير البياني في آيات الأمن والخوف : ٣١٩ .

(٢) المقابلة في القرآن الكريم : ٤٨ .

وتتنوّع الأساليب من استفهام إلى تعجُّب إلى تهديد إلى إخبار، ويختلف الاتجاه إلى مواضع الاستدلال وينابيعه، فمرَّة يكون الاستدلال بردِّ المسائل إلى أمور بدهيَّة معروفة، أو حقائقَ مشهورةٍ مألوفة يخرّ المجادل أمامها صاغرًا، وأحيانًا يضرب الله تعالى الأمثال؛ ليقرِّب الحقائق ويدنيها »[١].

٤. تحقيق الغرض الأسمى والمطلب الأرفع للبيان القرآني، وهو الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والأخذ بيد المخاطَب نحو الصواب، باستخدام شتى الطرق لتهيئة المتلقِّي لاستقبال الدعوة برضًى، يشرق معه وجه الحقّ أمامه جليًّا؛ فيسير وراء المعنى في تصريفه، وتجدُّده بسبله البلاغية المتنوِّعة، وكلَّما أمعن المتدبّر فكره في أساليب البيان القرآنيّ المختلفة، وقف على بلاغة في الألفاظ لا تُحَدّ، وثراء في المعاني لا ينفد، وتصريف في العقول يتجدَّد، تتنوَّع فيه مناهج التأثير بالتنقُّل بين أساليبه البديعة، وأدلّته المعجزة حتى تتفتَّق عن لطائفَ جليلة تتنافس في تقرير المعاني وترسيخها، وقد استقرأ د.أحمد أبو زيد تصريف البيان في موضوع العقيدة أهمِّ الجوانب المؤثِّرة في تهذيب النفوس وإقبالها على الخير ونفورها من الشرّ، ومحلِّ الإنكار الشديد من الفئات البشريَّة الضالَّة، فخرج من استقرائه بنتيجة مفادها أنَّ القرآن لا يسير على أسلوب واحد في النَّظْم بل يصرِّف القول على أوجهٍ وأساليبَ شتَّى تتبارى في البلاغة، ليتمَّ بها تقرير الحقائق أتمَّ تقرير[٢].

(١) المعجزة الكبرى : ٤٠٨- ٤٠٩ .

(٢) ينظر : التناسب البياني في القرآن : ٨١، ٨٣

٥. **تجديد نشاط المخاطب للإقبال على تلاوة القرآن، وتمثل أساليبه،** من أجل ذلك عُدّ التصريف جانبًا مهمًّا من جوانب الإعجاز القرآنيّ، يقول محمد عبد العظيم الزرقانيّ (١٣٦٧هـ): «ومن عجب أنَّه في تحويله الكلام من نمط إلى نمط؛ كثيرًا ما تجده لا يُجارى في سرعته، ثُمَّ هو على هذه السرعة الخارقة لا يمشي مُكِبًّا على وجهه، مضطربًا أو متعثرًا، بل هو محتفِظ دائمًا بمكانته العُليا في البلاغة يمشي سويًّا على صراط مستقيم... لقد خلع هذا التصرُّف والافتنان لباسًا فضفاضًا من الجِدَّة والرَّوعة على القرآن، ومسحه بطابَع من الحلاوة والطلاوة، حتى لا يملَّ قارئه ولا يسأم سامعه، مهما كثرت القراءة والسماع، بل ينتقل كلٌّ منهما من لون إلى لون، كما ينتقل الطائر في روضة غَنَّاء من فَنن إلى فَنن ومن زهر إلى زهر» (١).

٦. إيصال معانيه تامة إلى مختلف الأفهام التي تنطوي عليها النفوس البشرية: ويقف ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) عند هذا النوع من التصريف في الحجاج مبينًا ما يتبعه من دلائل التفكر في الأنفس والآفاق في قوله: «وتصريف الآيات اختلاف أنواعها ... فهي متَّحدة في الغاية مختلفة الأساليب متفاوتة في الاقتراب مِن تناول الأفهام عامِّها وخاصِّها، وهي أيضًا مختلفة في تركيب دلائلها من جهتي المقدّمات العقليَّة وغيرها، ومن جهتي الترغيب والترهيب ومن التنبيه والتذكير، بحيث تستوعب الإحاطة بالأفهام على اختلاف مدارك العقول» (٢).

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن : ٢/ ٢٦٩- ٢٧٠.

(٢) التحرير والتنوير : ٦/ ١٠٥ .

٧. زيادة العبرة والموعظة وتذكير الناس بعاقبة الفجرة من الأمم السابقة، لاستحضار خشية الله والخوف من عذابه. ولتسلية النبي ﷺ والمؤمنين بذكر رحمة الله ووعده ومعيته للمؤمنين.

٨. في ذكر القصة ذاتها في عدة سور استكمال لجوانب القصة، فتُذكر موجزة تارة ومطنبة تارة أخرى، ويسلط الضوء فيها على جانب من الأحداث في كل سياق يتعلق بالمقام وقرائن الأحوال والسياق، تكرار القصة في مواضع من القرآن يضفي على بيانه العظيم جمالا وبياناً لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثله. ومع تكرار بعض القصص في سور مختلفة إلا أننا لا نجد أي خلل أو تناقض، ولا غرو فالقرآن كلام الله تعالى.

٩. الحِجاج على أهل الضلال بتصريف المعنى الواحد في سياقات مختلفة، تتبوّأ أسمى درجات البلاغة [(١)].

١٠. تمكين العبرة والموعظة، وتقرير المعاني المهمّة لتذكير الناس، وبخاصة أهل الضلال الذين يتذرّعون بأقبح الأباطيل لأجْل التمادي في الغواية: وقد أكّدت هذه القيمة في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾[الإسراء: ٤١]، وقوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[الأنعام: ١٠٥].

١١. زيادة التدبّر في القرآن الكريم، فالتصريف إعجاز في الأسلوب، يجمع بين الإجمال والتفصيل، والإبهام والوضوح، وإمعان الفكر فيه يزيد من المعارف والأسرار.

---

(١) ينظر: النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): ١٠١- ١٠٢.

الخاتمة

وبعد، فإن من فضل الله عليّ أن كانت هذه الجولة في إعجاز التصريف القرآني التي تنقَّلت فيها مع أساليبه البديعة، وأفانينه المعجزة؛ مُنعِمة النظر فيما يندرج تحته من أنواع، مبيِّنة من أوردها من العلماء، متوسمة ما وراءها من مقاصد ولطائف.

فكلّ ما ذكرته من التصريف في المعاني والأساليب ما هو إلاّ غيض من فيض وقطرة من بحر، ويظهر بتدبُّر القرآن « في كلِّ ما تصرّف فيه من الأنواع أنّه على سمت شريف، ومرقب منيف، يبهر إذا أخذ في النوع الرَّبيّ، والأمر الشرعيّ، والكلام الإلهيّ، الدالّ على أنه يصدر عن عزّة الملكوت، وشرف الجبروت، وما لا يبلغ الوهم مواقعه: من حكمة وأحكام، واحتجاج وتقرير، واستشهاد وتقريع، وإعذار وإنذار... تجد فيه الحكمة وفصل الخطاب، مجلوّة عليك في منظر بهيج، ونظم أنيق، ومعرض رشيق، غير معتاصٍ على الأسماع ولا مغلَق على الأفهام، ولا مُستكرَه في اللفظ، ولا مُستوحَش في المنظر »[1].

وهكذا يتنقل البيان الإلهيّ المعجز بين المعاني؛ ليقرِّر قضايا التوحيد البالغة الأهمّيَّة ويهذِّب النفوس ويسهّل لها دروب الفهم والتأثر بأوجهٍ متغايرة، وأساليبَ شتَّى تتبارى في البلاغة، ليتمَّ بها تقرير الحقائق أتمَّ تقرير، بتنوّع في الأسلوب والعرض، ليوجِّه الأنظار، وينبه العقول،

(١) إعجاز القرآن للباقلاني : ٣٢٥ .

ويطلقها من القيود التي استحكمت فيها.

وبعد هذا العرض الموجز الذي سعى إلى الكشف عن الجوانب الوصفية لأسلوب التصريف، آن لي أن أسجل أبرز ما بينته هذه الدراسة:

- ناقشت الدراسة معنى التصريف في القرآن، وتفوّقه على غيره من المصطلحات التي حاولت منافسته كالتكرار والترداد والتشابه، وثبت تفوُّقه عليها ومواءمته للبيان الإلهيِّ المعجِز؛ فهو مصطلح قرآنيّ.

- أظهر البحث كيف صُرِّفت القصص والمعاني والألفاظ في القرآن بطرائق شتَّى في مواطن متفرِّقة؛ لتتحقّق بذلك مقاصده بأبلغ الأساليب وأبدعها، فلا تكرار في مشاهده المتنوعة، بل تنوُّع عجيب وتفنُّن بديع، انفرد به بيانه الفذّ.

- يعدّ التصريف في القرآن بما أتى عليه من أساليب متنوِّعة من أبرز مظاهر الإعجاز القرآنيّ، حيث يصوِّر المعاني بأساليب مختلفة تعطي جوانب النفس -الحسِّيَّة والمعنويّة- نصيبها المطلوب من التأثير، فيذكِّر المؤمنين، ويهدي الكافرين، ويفحم المعاندين، وهو في كل هذه الأساليب مبرَّأ عن التناقض .

- يختلف تصريف المعاني تبعًا للسياقات المختلفة مما يعمق الإحساس بقوَّة المعنى وبراعة الأسلوب، وهذا جزء من علم التناسب بين المحكم والمتشابه في الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

- جاء التصريف القرآنيّ لخدمة مقاصد الكتاب الكريم، وامتاز برقيِّ

الأسلوب ووضوح المعالم مع الإسهام الكبير في تجلية المعاني والتأثير الوجدانيِّ، ولم يقتصر على جانب واحد، بل تنافست فيه الأساليب المعجزة في إبراز المعاني بألفاظها وتراكيبها.

- أكَّدت الدراسة أن توارد الألفاظ والتراكيب على معنًى واحد مع استقلال كل أسلوب بمعنًى لا يكون في غيره لصياغة صورة متكاملة للمعنى القرآني الجليل بأداء بديع سمة مميزة للتصريف القرآني.

- أبانت الدراسة عن بلاغة التصريف في التعبير بالماضي عن المستقبل للدلالة على تحقُّق الوقوع، فتبدو أهوال القيامة حين تصرّف بهذا الأسلوب وكأنها قد وقعت رأي العين، وعاين أصحابها أحداثها من أمن ونعيم تتوق إليه النفوس، إلى فزع وهول تنخلع له القلوب، ويتجدد نشاط المتلقي ويستحضر الصورة بتجددها حين تصرّف المعاني في السياق نفسه إلى المضارع.

- جلّى البحث القِيَم البلاغيّة الوظيفية لتصريف المعاني في القرآن الكريم، كاشفًا عن بلاغة استعمال كل منها لمقتضى الحال.

هذا وإنني أحمد الله ﷻ على ما بلَّغني إيَّاه من إتمام هذا البحث وإخراجه، وأسأله سبحانه أن يباركه، ويجعله فاتحة خير! وأستغفره سبحانه من كلِّ خطأ، أو تقصير. وأسأله أن يجعل ما صرفت فيه من جهد ثِقَلاً في ميزاني!

ولله الحمد أولاً وآخرًا، وصلى الله وسلَّم على خير خلقه محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثبت المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم: المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٨هـ .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود الحنفي، وضع حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ .
- أصول الإيمان بالغيب وآثاره، د. فوز كردي: دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.
- إعجاز القرآن، أبوبكر الباقلاني، شرح وتعليق د. محمد عبدالمنعم خفاجي: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- أعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق طه عبد الرءوف سعد: دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣ م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي وبهامشه حاشية أبي الفضل الكازروني، تحقيق عبد القادر حسونة، إشراف مكتب البحوث والدراسات: دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ .
- بديع القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق د.حفني محمد شرف: نهضة مصر للطباعة والنشر.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ .
- بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم، زينب كردي، رسالة دكتوراه

غير منشورة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣١هـ.

- بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم، د.عبد الله النقراط: دار قتيبة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- بيان إعجاز القرآن، الخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن).
- البيان والتبيين، أبو عثمان الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون: مكتبة الخانجي، مصر .
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق د.حفني محمد شرف: وزارة الأوقاف، القاهرة، ١٤١٦هـ .
- التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور: مؤسسة التاريخ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ .
- تصريف المعاني في القرآن الكريم، د.عبدالعزيز العماr: بحث منشور في مجلة العلوم العربية، جامعة الإمام: العدد ٢٤، ١٤٣٣هـ
- التصوير البياني في آيات الأمن والخوف، زينب كردي: دار غراس، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.
- تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، وبهامشه تفسير النهر الماد من البحر لأبي حيان نفسه: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.
- تقرير الشمس الإنبابي على شرح السعد التفتازاني لتلخيص المفتاح وحاشيته المشهورة بالتجريد: مطبعة السعادة، مصر، ١٣٣٠هـ .
- التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنوي والصوتي، أحمد أبو

زيد: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ١٩٩٢م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الشيخ عبد الرحمن السعدي، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٢٢هـ.
- جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، تحقيق أحمد شاكر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ.
- حاشية ابن عرفة الدسوقي على مختصر السعد (ضمن شروح التلخيص) : دار الكتب العلمية، بيروت.
- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د. محمد عبدالعظيم المطعني: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د.محمد أبو موسى: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٢١هـ.
- درة التنزيل وغرة التأويل، الخطيب الإسكافي، تحقيق د.محمد مصطفى آيدين: جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- الرد على المنطقيين، ابن تيمية، تقديم وتعليق د.رفيق العجم: دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.
- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ابن قيم الجوزية، تحقيق د.علي بن محمد الدخيل الله: دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٨ هـ.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة

العلوي، تحقيق د.عبد الحميد هنداوي: المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ .

- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، البهاء السبكي، تحقيق د.خليل إبراهيم خليل: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق د. النبوي شعلان: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.
- في ظلال القرآن، سيد قطب: دار الشروق، القاهرة، الطبعة الشرعية السادسة والعشرون، ١٤١٨هـ .
- لسان العرب، ابن منظور: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م .
- متشابه الفواصل القرآنية دراسة بلاغية، د.سارة البديع: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، ١٤٣٤هـ.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد: المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٦هـ .
- المعجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة: دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٩٠هـ .
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي: دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٨هـ .
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، عني به: د.محمد عوض مرعب، فاطمة أصلان: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ .

- مفاتيح الغيب، الفخر الرازي: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠ هـ .
- مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف السكاكي، تحقيق د.عبد الحميد هنداوي: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ .
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد خليل عيتاني: دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ .
- مناهل العرفان في علوم القرآن، عبد العظيم الزرقاني، تحقيق أحمد بن علي: دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٢هـ .
- من بلاغه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، ط١، دار اشبيليا، الرياض، ١٤٢٢هـ
- المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، أبو القاسم السلجماسي، تقديم وتحقيق علال الغازي: مكتبة المعارف، الرباط، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.
- المنطق، ابن سينا: المكتبة الشاملة.
- النكت في إعجاز القرآن للرماني (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق محمد خلف الله، ود.محمد زغلول سلام: دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة.
- النهج القويم في دراسة علوم القرآن، د. عبدالغني الراجحي: مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.